الهوية...مالها ومن لها؟

د.المصطفى حجازي

عند مناقشة "منظومة الإصلاح المستدام"- والتي تنبني على أربعة عناصر أساسية نُعرِّف العنصر الأول منها بالمضطلعين بالإصلاح(فاعلي الإصلاح)، وثانيهم بمجال الإصلاح ومقصده، وثالثهم بمنهجية الإصلاح ورابعهم ببيئته- تبرز إشكالية ملحة يُتصور أنها حُسِمت لدينا ألا وهي إشكالية الهوية.

والمُستغرَب أن السؤال لم يصبح سؤالاً عن كُنه الهوية أو ماهيتها (ما هي هويتنا؟) التي ينبغي أن يتأسس عليها الفعل الإصلاحي، بل صار النقاش حول جدوى حسم قضية الهوية بالأساس. ورغم أن العقل والنقل (بلسان أهل الفقه)- أي المنطق والتجارب التاريخية- فيهما الكفاية لحسم هذه الإشكالية وللتأكيد على أن الهوية هي المنطلق الأول لكل فعل إصلاحي وأحد منشئي إستدامته– ولسنا كمصريين أو مسلمين مغاييرين للبشر في ذلك- إلا أنها صارت لدينا عبئاً يزيد الغيم على الرؤى والأفكار أكثر مما يجلّي تلك الرؤى أو يساهم في منح هذه الأفكار معانيها وحيوتها.

وفي هذ السياق تأتي أهمية تحقيق الرسالة الجادة الحاضرة في كتاب أحد أكثر المفكرين المعاصرين تأثيراً في مجتمعاتهم وهو *علي شريعتي* في كتابه "العودة إلى الذات" والذي أراه يناقش هذه الإشكالية بجدية تتناسب مع خطورتها وبموضوعية ووعي نُدِرَ أن يوجدا إلا في كتابات المفكرين "الحقيقين" الذين أسهموا في توجيه حركة التاريخ من خلال أزمانهم وأوطانهم.

وتأتي أهمية تحقيق هذه الرسالة في أنها تناقش مانراه مقدماً عن الحديث عن كنه الهوية وهو الحديث الواجب عن من يتصدى للبحث عنها وفيها، أي من لها؟ ومن الأولى ببلورتها؟ من أبناء المجتمع والذين يُؤمَل في الاهتداء إليهم، وأهليتهم وضع المجتمع على المنطلق الصحيح لحركة صلاحه ومن ثم نهضته.

ومن ثم وجدنا في تلك الرسالة تناغم تام مع الأسس الفكرية التي نرى من وجهة نظرنا أنها الكفيلة بالتعامل مع تلك الإشكالية وحسمها وعليه نورد أفكار العودة إلى الذات في شكل مناظرة فكرية بين مبانٍ ومعانٍ من طرفنا ومن طرف *شريعتي* تؤكد وتوضح بعضها بعضاً.

"العودة إلى الذات" كتاب يبدأ بقبس من الأمل وملامح طريق لكل آمل وفاعل وجاد في مجال إصلاح مجتمعه- وبخاصة أبناء الحضارة العربية والإسلامية والذين تجمعهم حالة من التراجع الحضاري في زمننا هذا- وذلك فيما يجمله *علي شريعتي* فيما يسمى معجزة "الإيمان والوعي" وهي تلك المعجزة التي بالضرورة تخص من أسلفنا تعريفه بفاعل الإصلاح أو بالأحرى قائده والذي نراه محور هذا الكتاب.

وبداية نؤسس نحن في هذه الدراسة عن "دور الهوية في منظومة الإصلاح والنهضة" أن المضطلع بالفعل الإصلاحي على وجه من ثلاثة - فهو

- إما أصل من أصول الإصلاح (إنسان صالح)،
- أو محفز من محفّزيه (أي إنسان مصلح)
- أو أخيراً قائداً لهذا الإصلاح.

وفاعل الإصلاح على الأوجه الثلاثة هو مفجر تلك المعجزة والقائم عليها. وقد أصاب *علي شريعتي* كبد الحقيقة وكان حظه من الدقة عالياً حين أرجع قوة جذوة الإصلاح إلى شرارة تلك المعجزة لأن كما نعتقد يقيناً أن المُخَاطَب في منظومة إصلاح تنموي حقيقي لمجتمع ما- وليس مدعي- هو الوعي الإدراكي لهذا المجتمع والذي هو مناط قدرته والمُؤسِّس لها ومن ثم مَنشأ معجزته.

وكما بدأ بتناول مَنشأ قدرة المجتمعات وباعث طاقاتها، فإنه حين يناقش حجر الزاوية الآخر في قضايا إصلاح ونهضة المجتمعات، وهو ما نسميه نحن "موقع مقتفي الإصلاح داخل سلسلة القيمة الإصلاحية كونه من قادة أو محفزي أو أصول هذا الإصلاح، فإنه بالضرورة يؤسس للدور القيادي للفكر في منظومة الإصلاح حين يتطرق إلى الحديث عن مسئولية المفكر في مجتمعه. وهو ما نؤكده بأن تأسيس النسق المعرفي لأي حركة إصلاحية في مجتمع هو عمل مفكريه. فهو يؤكد- وبحق - على مسئولية المفكر عن عصره

All copy rights and Intellectual Property rights for the methodology and concepts used in this are reserved by SQUARE Institute for Strategic Thinking, ACME Corp-EMENA ® Copyright © 2007

وجيله وعلى دوره في تحديد الدور الاجتماعي المُلقى على عواتق المتعلمين والمثقفين. وكذلك يؤصل لحق المجتمع في أن يكون المفكر فيه مُرتَكِزاً على تاريخه وثقافته وأن يُؤَسَّسَ دوره على تاريخ السواد الأعظم *في مجتمعه* هذا.

وهو في ذلك لا يزعم للمفكر قيادة أو زعامة قدرما يحذر باطناً وظاهراً من خطورة الخلط في مواقع التوطين في تلك السلسلة على النتائج المرجوة من هذا الإصلاح. بل ويذهب إلى حقيقة أبعد من ذلك وهي أن هذا الخلط يؤدي إلى تراجع وانحطاط في حال هذه المجتمعات التي لا تلتفت إلى ضرورة احترام التوطين الصحيح في سلسلة القيمة الإصلاحية. والذي يعني بالضرورة بأن "يُوَسَّدَ الأمر لغير أهله". وهذا ما نؤكده ونثني عليه لأن حال حدوثه يكون حياداً عن سنة الأهلية في حياة البشر والتي تُؤَصَّل إسلامياً في الحديث الشريف "أنه من ولّى الأمر غير أهله فقد خان الله ورسوله".

المحور الرئيسي لفكرة "العودة إلى الذات" أو "إشكالية الهوية" كما نسميها في هذه الدراسة وغيرها - تتجلى ملامحه في حديث *شريعتي* عن معرفة "الموقع من التاريخ"، أي أين نحن من الجغرافيا مكاناً والتاريخ زماناً، وفي المقارنة التي يسوقها بأنه دون معرفة هذا الموقع من التاريخ ثم الإجتراء على معاني الإصلاح وآلياته فنحن أشبه بمن يعالج مريضاً لانعرف عمره ولا مدة مرضه ولانعرفه نفسه. والحديث عن "الموقع من التاريخ" ينتصر لمبدأ علمي وبديهي في منظومة الإصلاح والتطور المجتمعي وهو ما أصكه فيما يسمى "طبوغرافية ميدان الإصلاح" وهي قريبة الشبه بمن يشن حرباً فيها بقاؤه أو فناؤه في ميدان يتقاعس عن سبر غوره أو استطلاع أبعاده وتحدياته.

وحين يستطرد الحديث على ضرورة حسم بديهية علم "الموقع من التاريخ" الهامة (والتي نؤكد على كونها كذلك) فإننا نتعرض لمقارنة بين مخاطب المصلحين الأوروبيين في القرن التاسع عشر ومخاطبنا نحن كمصلحون في بلادنا الإسلامية – يضع يده على بيت الداء حين يدلل على عمق الفجوة الحضارية بين مخاطبنا ومخاطبهم والتي نراها حالة تراجع في إنسانية المسلمين ليس لها تفسيرأو مبرر إلا استمرائهم لتغييب الوعي بل والافتراء على الله بجعل هذا التغييب تعبداً. هذا التغييب الذي نؤكد في ظننا أنه قد جعل لسان حال المسلمين ينكر إنسانيتهم ويستنكرها بل وللعجب طال ذلك لسان مقالهم فصاروا كمن أبى لنفسه الكرامة والحرية والعدالة وآثر المهانة والاستعباد والقهر مظنة درأ الشبهة في الدين ورغبة القربى إلى الله ووحيه فما ازدادوا إلا عن الوحي بعداً وما فتئوا يعيشون في مواطن الزلل التي أردوا النجاة منها.

وكأني في معرض كتاب "العودة إلى الذات" أسأل سؤالاً طالما طرحته على إخواننا وأخواتنا في الإسلام مع اختلاف أعمارهم ومشاربهم الفكرية (وهو سؤال بالقطع يساهم في وضع ملامح الهوية) وهو أيهما كان من أجل الآخر الوحي الالهي من أجل الحياة أم الحياة من أجل الوحي. بل وذهبنا إلى أبعد من ذلك حين وجدنا أن سؤال "هل المسلم إنساناً قبل أن يكون مسلماً" للأسف أضحى بديهياً وارداً بل وملحاً!!

وجدنا *علي شريعتي* يتناول هذا السؤال إجابةً حين يضع يده على عناصر الإنسانية في الفرد من أبناء الحضارة غير الإسلامية والتي عمل الغربيون تحديداً على التأكيد عليها– حتى وأن بلغوا حد المبالغة – حينما تنازل عنها المسلمون بالكلية طواعية أو تغييباً كما أسلفنا ويظهر ذلك جلياً حين يقول "بورجوازيوهم مفكرون تقدميون عصريون مضادون للملكية وثوريون مطالبون بالحرية ومن أعمالهم الثورة الفرنسية أما بورجوازيونا الكلاسيكيون فهم عبارة عن السوق وهو عبد مطيع للمسجد وبورجوازيونا العصريون في استسلام كامل للشركات الأجنبية".

كذلك يقول "هناك يدور الصراع بين القديم والجديد والكلاسيكية والعصرية حول الفكر والعقيدة والرؤية الكونية والإحساس بالطريق واختياره وأسلوب الحياة والرؤية الدينية والسياسية والفلسفية والعلمية والذوقية وتذوق الفنون" فهو يتحدث عن صراع حاضر فيه العقل ومساحاتِ التدبر والتفكرِ التي أمر بها القرآن الكريم تعبداً فغُيِّبَتْ قهراً أو طواعية أو تكاسلاً.

ونراه بهذه المقارنة يؤكد على مبدأ تطور الفكر الإنساني وحركة النضج في الفهم الإنساني على مدار التاريخ والتي وبحق قد تسارعت في مضمار نضجها في القرنين التاسع عشر والعشرين والتي هي مسار رقي البشرية حال تمام نضجها إلى إطار تشريعات الوحي كحقائق تطور فكري وأسس يلزم المجتمعات أن تتبنى عليها وإن كان ذلك مرهوناً بمدى موضوعية القائمين على أمر البشرية حينها ومدى قبولهم للإقرار بهذه الحقيقة. وبتدليله على

All copy rights and Intellectual Property rights for the methodology and concepts used in this are reserved by SQUARE Institute for Strategic Thinking, ACME Corp-EMENA ® Copyright © 2007

مآل تطور الفكر الإنساني بما ساق من مقومات الإنسانية الحاضرة في الفكر النهضوي الغربي يكون قد خفف من حدة الاستقطاب الحادث في عقلية المسلم بين إسلامه وإنسانيته.

وكما أسلفنا فإن *علي شريعتي* يبدأ في التأكيد على صفات وملامح القادة في منظومة الإصلاح التنموي وهم الأولى بحسم إشكالية الهوية والأجدر بالعودة إلى ذواتهم ألا وهم المفكرون.

يناقش ويؤطر *شريعتي* للمفكر ملامح وعيه وأدوات تواصله وعلاقته بمجتمعه تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً. فيبدأ بعقد مقارنة بين المفكر والمثقف ثم بين المفكر والعالم قائلا "أن المفكرين – خلافاً للمثقفين – ليسوا جماعة متميزة، فهم من الوجهة الطبقية الإجتماعية لا يقفون في مقابل الجماهير أو الشعب أو عوام الناس أو بإزائهم، لأن الفكر المستنير صفة معنوية بارزة في الإنسان ليست شكلاً اجتماعيا متميزاً" ويستطرد مؤكداً أن بين المفكر والمثقف توجد علاقة ثنائية عامة (وخاصة من وجه ما) فوظيفة المثقف والعالم هي إدارة الحياة ودفع المجتمع إلى القوة والتقدم والمنفعة والرفاهية وتحسين أوضاع الإنسان ورسالة المفكر هي حركة الحياة وهداية المجتمع وتغيير الإنسان وإنضاجه أو تحسن حالته.

وكذلك يرى في مقارنته بين العالم والمفكر، أن العالم يستطيع ألّا يكون سياسياً وأن يكون فاقداً للوعي الاجتماعي وفهم العصر لأنه مشغول بعمله في ركن من أركان هذه القافلة البشرية العظيمة يقوم بمهامة التخصصية ويستطيع جرّاح القافلة أو طبيبها أو سائسها بعمله دون أن يعلم إلى أي مكان تتجه القافلة أو ينبغي أن تتجه لكن المفكر هو الآخذ بزمام القافلة والمهمة الملقاة على عاتقه هي معرفة الطريق والمخاطر وتعبئة الناس والتناسق المعنوي في القافلة وهو ماتعنيه السياسة.

وهنا يضع *شريعتي* توصيفه لقائد الإصلاح - وهو المفكر والذي نتفق تماماً مع صحة هذا التوصيف- وهو "أن المفكر المستنير لا هو بالفيلسوف ولا هو بالعالم ولا بالكاتب ولا بالفنان، فالمفكر المستنير متعصب (أي منتمي لجماعته، مستجلي لهويته) ذو وعي ذاتي يحس بروح عصره وحاجيات مجتمعه، وعنده رؤية ذات اتجاه محدد ولديه أيضاً قيادة فكرية". وإن كنا نرى أنه يستثني من ذلك من يسمون بالفلاسفة التطبيقيون حيث أن كل ما ورد من صفات المفكر تصح فيهم وهم يبدأون من كونفوشيوس مروراً بابن خلدون وابن رشد وابن تيمية وجون جاك روسو وحتى غاندي انتهاء بمعاصرين من أمثال مهاتير محمد.

ويسوق الشبه الواضح بين الرسالة والاتجاه عند قادة الحركات التحررية المضادة للاستعباد وبين الرسالة التاريخية لأنبياء الله إبراهيم وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام وكذلك يسوق التطابق البيّن بين أعمال ممثلي صفوة الفكر المعاصر (الانتلجنتسيا المعاصرة) أمثال هيجل وديكارت وباستور وبين النمط الفكري لأشخاص مثل أرسطو وأفلاطون والكِنْدي وابن سينا والغزالي وخلص إلى أن الوعي والشعور بالقيادة (والتي لا تعني بالضرورة الزعامة أو الحكم) هما ميزتا المفكر كما أن قدرة المفكر على منح الحركة الحقيقية وليست الزخم الفارغ (القعقعة دون الطحن) والاتجاه الجلي للمجتمع هما مناط قيادته المستحقة. "كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته".

وعن علاقة قائد الإصلاح ببيئته يحدد شرط كون المفكر قائداً في مجتمعه وهو أن يتحدث بلسان قومه مصداقاً للآية الكريمة "وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه"، مع التأكيد على دلالة اللسان هو أن يتحدث من وحي ثقافة قومة وروحهم وعواطفهم معبراً عن حاجاتهم وآلامهم ومتاعبهم وأمانيهم "الحقيقية" وليست المتصورة أو المشخصة من قبل أفراد منفصلة عن واقعهم ولا تعلم طبيعة وعيهم. لأن المجتمع والقيادة الاجتماعية ليسا أمراً مجرداً ومطلقاً وكل مجتمع له وضع خاص مرتبط بظروفه الاجتماعية الواقعية ومرحلته التاريخية وروحه الاجتماعية ونوع ثقافته. فإن المفكر على خلاف الطبيب أو عالم الطبيعة أو الفيلسوف لا يستطيع أن يكون مفكراً (أي متحدثاً بلسان قومه) بالتعلم المباشر للمبادئ الإجتماعية والمدرسية العامة.

وهنا نرى أن منشأ خصوصية علم المفكر هو ضرورة حسم بديهية "العودة إلى الذات" بشكل يقيني وجلي خاصة قبل طرح أية أفكارٍ إصلاحية للمجتمع.

ويخلص أن الكارثة التي تجتث أمل الإصلاح في أي مجتمع من جذوره ليست في تحول العوام المستهلكين إلى متشبهين بغيرهم وليست حتى في تحول متعلمينا وحملة الشهادات المتخصصين عندنا في الأعمال حديثة الظهور إلى متشبهين، المصيبة

All copy rights and Intellectual Property rights for the methodology and concepts used in this are reserved by SQUARE Institute for Strategic Thinking, ACME Corp-EMENA ® Copyright © 2007

الكبرى هي تحول المفكرين المستنيرين (الحقيقيين) أي المفكرين الذين في أيديهم قيادة الأفكار وتوجيه الروح والثقافة والإيمان في المجتمع الذين يعتبرون ظهراء الزعماء السياسيين والاجتماعيين عن هويتهم.

حري بكل القائمين على أمر الإصلاح في مجتمعاتنا أن يعيدوا تقييم موقع الفكر في منظومة إصلاحهم وأن يبدأوا بجهد حثيث في حسم قضية الهوية من خلال دعم مفكريهم على استجلاء ملامح ذات مجتمعهم والعودة إليها.

All copy rights and Intellectual Property rights for the methodology and concepts used in this are reserved by SQUARE Institute for Strategic Thinking, ACME Corp-EMENA ® Copyright © 2007